نظرات في سورة يوسف (4)

أحد عشر كوكباً

طارق مصطفى حميدة
مركز نون للدراسات القرآنية

يبدأ المشهد الأول من القصة بكلام بين يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام: (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين، قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم).

هذا المشهد على وجازته، يفسر الرؤيا، ويحذر من المخاطر، وينبه إلى حسن التعامل معها، ويلخص القصة ويعرّف بأبرز أشخاصها.

فبعد أن يذكر لنا اسم الشخصية الرئيسة (يوسف)، يعرفنا بأن له إخوة يُخشى عليه من كيدهم، ثم يعرفنا بآبائه وأنهم يعقوب وإسحق وإبراهيم، فهو ابنهم الصُلبي كما أنه سيصير وريثهم في حمل الرسالة، وها هي الرؤيا أول ما يُبدأ به يوسف من النبوة، ومن حكمة الله تعالى أن كانت الرؤيا في زمن الوالد النبي كأنما ليطمئن الوالد النبي أن هناك من سيرث الدين بعده، وليهيء النبي القادم لما سيلقاه.

ويذكّر الوالد ولده بعداوة الشيطان المتأصلة للإنسان منذ آدم عليه السلام، فلقد سقط إبليس في الامتحان من يوم أن رفض السجود لآدم كبراً وحسداً، ومن المتوقع أن يستدرج الإخوة إلى الكيد ليوسف باستثارة مشاعر الحسد والكبر ذاتها، بل سيتضح من الآيات التالية أن إخوة يوسف يعانون من تلك المشاعر حتى من دون أن يقص عليهم الرؤيا التي تفيد أنهم سيسجدون له تحية واحتراماً، بعدما يكون قد صار في منصب رفيع فضلاً عن وراثة النبوة، فلينتظر يوسف فإنهم لا بد سيسجدون حينما يصيرون كواكب بعد زمن لا يعلم مقداره إلا الله.

والرؤيا هنا رؤيا منام، ولرؤية العين يستخدم تعبير الرؤية، والجذر واحد، وقد بين الرسول عليه السلام أن الرؤيا المنامية ثلاثة أنواع: جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة؛ بمعنى أنها شكل من أشكال الوحي، وإن لم يختص بالأنبياء، فقد ورد في السورة رؤى الفتيين والملك وليسوا بأنبياء ولا مؤمنين.

والثاني: أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم، أي أحلام مزعجة وكوابيس مصدرها الشيطان بقصد إدخال الحزن على نفس الإنسان، واختيار تعبير (ابن آدم) للتذكير بأن معركة الشيطان معنا بدأت منذ رفضه السجود لآدم، والحزن مدخل مهم للشيطان لتثبيط الإنسان عن النشاط الإيجابي بل وفي إيقاعه في الأفعال السلبية.

والنوع الثالث ما يشغل الإنسان في اليقظة فيراه في المنام، وهو النوع الوحيد الذي تقف عنده غالب مدارس علم النفس الغربي، والتي لا تقر بالوحي ولا بالغيب.

ويتضح من الرؤى في سورة يوسف أن الرؤيا لا تختص بالأنبياء ولا بالمؤمنين، والرؤيا قد تجيء رمزية كما في جميع الرؤى في هذه السورة الكريمة، وقد تجيء مباشرة كما في رؤيا الرسول أنه يطوف وأصحابه بالبيت الحرام، أو رؤيا إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ولده.

والغالب في الرؤى أنها تأتي لتخبر بالغيب المستقبلي، فإن كان سعيداً فهي تعين على تحمل الصعاب الحالية، وتبعث على الأمل والتفاؤل وتنفي اليأس والقعود عن العمل النافع، وإن كان المستقبل مؤلماً فهي تهيء النفس

لتلقي المصيبة وتخفف من وقعها عند حصولها، وهي في الحالين تقوم بدور إيجابي، ولذلك وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بالمبشرات.

فمن الرؤى ذات الأخبار السعيدة، رؤيا يوسف، ورؤيا النبي أنه يطوف وأصحابه بالكعبة، ومن الرؤى المخبرة عن مصائب رؤيا الملك عن السنوات العجاف، ورؤيا أحد الفتيين أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، وتأويلها أنه يُصلَب فتأكل الطير من رأسه، ورؤيا النبي ثُلمة في سيفه وأن بقراً تذبح، وقد أوّلها بمقتل عدد من أصحابه وفقدان أحد أقاربه وهو عمه حمزة.

والرؤى، سوى رؤى الأنبياء، لا ينبني عليها عمل أو تكليف شرعي، كأن يذكر بعض أقارب المتوفى أو معارفه، أنه جاءهم في المنام وطلب تنفيذ أمر يغلب أن يكون وليمة، أو توزيع طعام محدد عن روحه، ولا حجة في ذلك برؤيا إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ولده، فذاك نبي وتلك خصوصية للأنبياء، وعنده ما يجعله يوقن بأن رؤياه أمر إلهي، وقد كان ذلك مفهوماً لإسماعيل أيضاً حين قال: (يا أبت افعل ما تؤمر).

ومن الضلال أن ينتشر في الناس رؤيا مجهولة المصدر، على شكل منشور، منذ عشرات السنين أن شخصاً يدعى الشيخ أحمد، يوصف في المنشور بأنه خادم الحرم النبوي، يزعم أنه يرى الرسول عليه السلام في المنام، ويطلب المنشور ممن يقرأه نسخه وتوزيعه، وفيه وعد للمستجيبين، ووعيد للآخرين.

ويكثر مثل هذا عند جهلة المتصوفة فيما يزعمون أنهم رأوا الرسول، أو بعض مشايخهم المعاصرين أو القدامى، ويتعاملون مع هذه المنامات باعتبارها أوامر شرعية، متجاهلين أن الرسول عليه السلام لم يفارقنا إلا وقد أكمل الله له الدين، ولا حاجة بعد ذلك لتكليف ولا تخفيف.